تقديم

يعد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون في مقدمة العلماء المسلمين الأفذاذ الذين استحوذوا على اهتمام الباحثين والدارسين في الشرق والغرب، وينظر إليه على أنه صاحب رؤية حضارية خاصة، لاسيما فيما يتعلق بالتاريخ البشري والمجتمع الإنساني والعمران الحضاري. ولد ابن خلدون في تونس سنة ٧٣٢م (١٣٣٢م)، وأقام في أقطار المغرب حتى سنة ٧٨٤هـ وهي السنة التي رحل فيها إلى مصر عن طريق الإسكندرية التي وصلها يوم عيد الفطر، وكان هدفه قضاء فريضة الحج. ولكن لأسباب لم يفصِّلها لم يتح له تحقيق غايته، فقصد القاهرة، التي كانت في ذلك الوقت معقل التفكير الإسلامي في المشرق والمغرب، حيث اشتهر سلاطينها المماليك برعاية العلوم والفنون في المدارس وفي الجامع الأزهر. ولقي ابن خلدون كل حفاوة وإكرام، واتخذ ابن خلدون من أروقة الأزهر مدرسة يلتقي فيها تلاميذه. وتقرب ابن خلدون من الظاهر برقوق، حيث ولاه منصب تدريس الفقه المالكي بمدرسة "القمحية"، ثم منصب قاضي قضاة

المالكية للمرة الأولى سنة ٧٨٦م، وأعفى عنه بسبب الوشايات سنة ٧٨٧هـ، ولما ينقضي عام على ولايته له.

فعاد ابن خلدون إلى وظائف التدريس، وأدى فريضة الحج في سنة ٧٨٩هـ، وأعيد إلى تولي منصب القضاء مرة ثانية. وسافر إلى فلسطين بصحبة الناصر فرج لزيارة بيت المقدس سنة ٨٠٣هـ حيث التقى تيمورلنك. وتوفي ابن خلدون في السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ٨٠٨هـ، عن ست وسبعين سنة، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر.

وقد كتب ابن خلدون "المقدمة"، وهي المجلد الأول من المجلدات السبعة لكتابه "العبر وديوان المبتدأ أو الخبر"، في خمسة أشهر خلال النصف الأول من سنة ٧٧٦هـ، واستمر في تأليف كتاب "العبر" بقية السنوات الأربع التي تفرغ فيها للكتابة بقلعة ابن سلامة، غير بعيدة عن مدينة قسنطينية الجزائرية الحالية.

ويعالج ابن خلدون في مقدمته واقعات العمران البشري وأحوال الاجتماع الإنساني، وهو ما نسميه الآن "الظواهر الاجتماعية"، وهي عبارة عن القواعد والاتجاهات العامة التي يتخذها أفراد مجتمع ما أساسا لتنظيم شؤونهم الجمعية وتنسيق العلاقات التي تربطهم بغيرهم، وهو ما عرف فيما بعد بعلم الاجتماع الذي يعتبر ابن خلدون رائدًا له. وتعد المقدمة من أصول علم الاجتماع. وختم ابن خلدون

كتابه "العبر" بفصل عنوانه "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا" ذكر فيه نسبه وسيرته وما يتصل بهما. ومن كتبه "شرح البردة" وكتاب في "الحساب"، ورسالة في المنطق، وشفاء السائل لتهذيب المسائل، وله شعر.

وقد طبعت "المقدمة" عدة طبعات أولها طبعة مصر التي ظهرت سنة ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٨م تحت إشراف الشيخ نصر الهوريني، ثم طبعة باريس التي أشرف عليها المستشرق الفرنسي كاترمير، وظهرت في ثلاث مجلدات سنة ١٨٥٨م. وأخر هذه الطبعات هي طبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٧هـ بتحقيق الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي. وهي طبعة متقنة، شديدة الضبط. تحتوي على مقدمة دراسية غاية في الأهمية. وقد اشتهرت "المقدمة" في الغرب، وترجمت إلى عدة لغات، وخاصة الفرنسية والألمانية والتركية[1].

د. عبد الحميد صالح حمدان

---

(١) انظر التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا: تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، والإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين الخطيب ط مصر ١٩٥٦؛ والسلوك في دول الملوك للمقريزي، وحسن المحاضرة للسيوطي، والأحكام السلطانية للماوردي، ورفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلاني؛ والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوي؛ و"فلسفة ابن خلدون الاجتماعية" للأستاذ الدكتور طه حسين (ترجمة محمد عبد الله عنان: سنة ١٩٢٥)؛ ودراسات عن مقدمة ابن خلدون، للأستاذ سطع الحصري، ١٩٥٣؛ وفلسفة ابن خلدون للدكتور عمر فروخ، بيروت ١٩٤٦؛ وابن خلدون للأستاذ عزيز العظمة، ٢٠٠١، والأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظريته، للدكتور مصطفى الشكعة، القاهرة، ١٩٨٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العبدُ الفقيرُ إلى رحمة ربه، الغنيُّ بلطفه، عبدُ الرحمن ابنُ محمد بن خلدون الْحَضْرَميُّ وفّقه الله تعالى:

الحمد لله الذي له العزّةُ والجبروتُ، وبيده المُلكُ والملكوتُ، وله الأسماءُ الحُسنى والنُّعوتُ، العالِم فلا يعزُبُ عنه ما تُظهِرُهُ النَّجوى أو يُخفيهِ السُّكوتُ، القادرُ فلا يُعجِزُهُ شيءٌ في السَّماواتِ والأرضِ ولا يفوتُ. أنشأنا من الأرضِ نَسَمًا[1]، واستعمَرَنا فيها أجيالاً وأُمَمًا، ويَسَّرَ لنا منها أرْزاقًا وقِسَمًا، تكتنُفُنا[2] الأرحامُ والبيوتُ، ويكلَفُنا الرِّزقُ والقوتُ، وتُبلينا الأيّامُ والوقوتُ، وتعتَوِرُنا الآجالُ التي خُطَّ علينا كتابُها الْموقوتُ، وله البقاءُ والثُّبوتُ، وهي الحيُّ الذي لا يموتُ. والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدنا ومَولانا محمَّد النَّبيِّ الأُمِّيِّ العربيِّ المكتوبِ في التوراةِ والإنجيلِ المنعوتِ، الذي تمخَّضَ لفِصالِهِ الكونُ قبلَ أن تتعاقبَ، الآحادُ والسُّبوتُ، ويتَبايَنَ زُحَلُ

---

(١) النَّسَم جمع نَسَمة وهي النفس، والله بارئ النسم أي خالق النفوس (المصباح).

(٢) كَنَفَه حاطه وصانه (المصباح).

واليَهْمُوتُ[1]، وشَهِدَ بصدقِهِ الحمامُ والعنكبوتُ؛ وعلى آلِهِ وأصْحَابِهِ الَّذِينَ لهم فى محبَّتِهِ واتِّباعِهِ الأَثَرُ البَعِيدُ والصِّيتُ، وتَشْمَلُ الجميعُ فى مُظَاهَرَتِهِ ولعدوِّهِم الشَّمْلُ الشَّتِيتُ، صلَّى الله عَلَيْهِ وعَلَيْهِمْ ما اتَّصلَ بالإسلامِ جَدُّهُ المَبْخُوتُ[2]، وانْقَطَعَ بالكُفْرِ حَبْلُه المبتوتُ، وسلَّم كثيرًا.

أما بعدُ، فَإِنَّ فَنَّ التَّارِيخِ من الفُنونِ التى تَتَدَاوَلُهُ الأُمَمُ، والأَجْيَالُ، وتُشَدُّ إِلَيْهِ الركائبُ والرِّحالُ، وتسمو إلى مَعرِفَتِهِ السُّوقَةُ والأَغْفَالُ[3]، وتَتَنافسُ فيه المُلوكُ والأَقْيالُ.

وَجاءَ من بعدِهِم مَن عدَلَ عن الإطْلَاقِ إلى التَّقْيِيدِ، ووَقَفَ فى العُمومِ وَالإحاطَةِ عن الشَّأْوِ البَعِيدِ، فقَيَّدَ شَوارِدَ عَصْرِهِ، واسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أُفْقِهِ وقُطْرِهِ، واقْتَصَرَ على أَحادِيثِ دَوْلَتِهِ ومِصْرِهِ. كما فَعَلَ أبو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ الأَنْدَلُسِ وَالدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ بها، وابْنُ الرقيقِ مُؤَرِّخُ إِفْرِيقِيَةَ وَالدُّوَلِ التى كانتْ بالقَيْرَوَانِ.

---

(١) اليهموت هو النون أى الحوت الذى على ظهره الأرض السابعة، ويسمى أيضًا لوتا، كما فى الزهر وروح البيان والنهجة، ومعلوم أن بينه وبين زحل الذى هو فى الفلك السابع بونًا بعيدًا. قال الشهاب الخفاجى فى حاشيته على البيضاوى فى أول سورة نون: اليهموت بفتح المثناة التحتية وسكون الهاء، وما اشتهر من أنه بالباء الموحدة غلط، على ما ذكره الفاضل الحلبى، وظنه فى "روح البيان" أنه هو حاشية الجوزنى على ابن خلدون.

(٢) جَدّ بفتح الجيم الحظ والبخت. والمجدود والبخوت عظيم الحظ (القاموس).

(٣) رجل غُفْلٌ لم يجرب الأمور، وجمعه أغفال (المصباح).

ثم لم يأتِ من بعدِ هؤلاءِ إلاَّ مُقلِّدٌ وبَليدُ الطَّبْعِ والعقلِ أو مقلِّدٌ يَنْسجُ على ذلك المِنْوال، ويحتذي منه بالمِثال، ويَذْهَلُ عما أحالَتْه الأيَّامُ مِنَ الأحْوالِ، واستَبْدَلَتْ به من عَوائدِ الأُمَمِ والأجْيال. فيَجْنُبونَ الأخْبارَ عن الدُّوَلِ، وحِكاياتِ الوقائعِ في العُصورِ الأُوَلِ، صُوَرًا قد تجرَّدَتْ عن مَوادِّها، وصِفاحًا انتُضِيَتْ من أغْمادِها، ومَعارفَ تُستَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بطارِفِها وتِلادِها[1]. إنما هي حوادثُ لم تُعْلَمْ أُصولُها، وأنواعٌ لم تُعْتَبَرْ أجْناسُها ولا تحقَّقَتْ فُصولُها؛ يكرِّرونَ أمرَ الأجْيالِ الناشئةِ في ديوانِها، بما أعْوَزَ عليْهِمْ من تُرْجُمانِها، فتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عن بَيانِها. ثم إذا تعرَّضُوا لذِكرِ الدولةِ نَسَقوا أخْبارَها نَسْقًا[2]، محافِظينَ على نَقْلِها وَهْمًا أوْ صِدْقًا؛ لا يتعرَّضُونَ ولا يَذكرون السَّبَبَ الذي رَفَعَ مِنْ رايَتِها، وأظْهَرَ مِنْ آيتِها؛ ولا عِلَّةَ الوقُوفِ عندَ غايَتِها؛ فيَبقى النَّاظِرُ مُتَطَلِّعًا بَعدُ إلى افْتِقادِ أحْوالِ مبادئِ الدُّوَلِ ومَراتِبِها، مُفتَشًا عن أسْبابِ تَزاحُمِها أو تعاقُبِها، باحِثًا عن المُقْنِعِ في تَبايُنِها أو تَناسُبِها، حَسْبَما نَذكُرُ ذلكَ كلَّه في مُقَدِّمَةِ الكتاب.

ثم جاءَ آخرونَ بإفْراطِ الاختِصار، وذَهَبوا إلى الاكْتِفاءِ بأسْماءِ المُلوكِ والاقْتِصارِ، مَقْطُوعَةً عن الأنْسابِ والأخْبارِ، مَوْضوعةً عَلَيْها

---

(١) التطارف والطريف المستحدث من المال، والتالد والتليد والتلاد: المال القديم (القاموس والصباح).

(٢) النسق عطف الشيء على الشيء، ونسق الكلام نسقًا نظمه، ونسق الكلام نسق عطفه بعضه على بعض.

أَعْدَادُ أَيَّامِهِم بِحُرُوفِ الغُبَارِ[1]، كما فَعَلَه ابنُ رَشِيق فى ميزان العَمَل، ومَنِ اقْتَفَى هذا الأَثَرَ مِن المَهَلِ، وَلَيْس يُعْتَبَرُ لهؤُلاءِ مَقَالٌ، وَلا يُعدُّ لهم ثُبوتٌ وَلا انْتقالٌ؛ لما أَذْهَبوا من الفَوَائِد، وأَخَلُّوا بالْمَذَاهِبِ الْمَعْرُوفَةِ للْمؤرِّخِينَ والعَوَائِدِ.

وَلَمَّا طالَعْتُ كُتُبَ القَوْمِ، وسَبَرْتُ غَوْرَ الأَمْسِ وَاليَوْمِ، نَبَّهْتُ عَيْنَ القَرِيحة من سِنَةِ الغَفْلَةِ وَالنَّوْمِ، وَسُمْتُ التَّصْنِيفَ من نفسى، وأَنا الْمُفْلِسُ، أَحْسَنَ السَّوْمِ. فَأَنْشَأْتُ فى التاريخ كتابًا، رَفَعْتُ به عن أَحْوالِ الناشئةِ من الأَجْيالِ حِجابًا، وَفَصَّلْتُه فى الأَخبار والاعتبار بابًا بابًا، وَأَبْدَيْتُ فيه لأَوَّلِيَّةِ الدُّوَلِ وَالعُمْرانِ عِلَلاً وَأَسْبَابًا؛ وَبَنَيْتُهُ عَلَى أَخْبارٍ ويَتَساوى فى فَهْمِهِ العُلَماءُ والجُهَّالُ، إِذْ هُوَ فى ظاهِرِهِ لايزيدُ على إِخْبارٍ عن الأَيَّامِ والدُّوَلِ، والسَّوابِقِ من القرونِ الأُوَلِ، تَنمو فيها الأَقوالُ، وتُضْرَبُ فيها الأَمْثالُ، وتُطْرَفُ بها الأَنْدِيَةُ إِذا غَصَّها الاحْتِفالُ، وتؤدِّى إِلينا شأنَ الخَلِيقَةِ كيف تَقَلَّبتْ بها الأَحْوالُ، واتَّسَعَ للدُّوَلِ فيها النِّطاقُ والمَجالُ، وعَمَروا الأَرْضَ حتى نادى بهم الارْتِحَالُ، وحانَ مِنْهُمُ الزَّوالُ، وفى باطِنِه نَظَرٌ وتَحْقِيقٌ، وتَعْلِيلٌ للكائِناتِ ومباديها دقيقٌ، وعِلْمٌ بكَيْفِيَّاتِ الوقائِعِ وأَسبابها عَمِيقٌ؛ فهو لذلك أَصيل فى الحِكْمَةِ عَرِيقٌ، وجَدِيرٌ بأَنْ يُعَدَّ فى عُلُومِها وخَلِيقٌ.

---

(١) هى الأعداد الهندية من واحد إلى تسعة مكتوبة بالأشكال التى تكتب بها فى المشرق

وإنَّ فُحولَ المؤرخينَ في الإسْلامِ قد استوْعبوا أخْبارَ الأيَّامِ وجَمَعوها، وسَطَّروها في صَفَحاتِ الدَّفاترِ وأوْدَعوها، وخَلَطَها المُتَطَفِّلونَ بدَسَائِسَ مِنَ الباطلِ وَهَموا فيها أوِ ابْتَدَعُوها، وزَخارِفَ من الرِّواياتِ المُصْطَنَعَةِ لَفَّقوها ووضَعوها، واقتفى تلكَ الآثارَ الكثيرُ مِمَّنْ بَعْدَهم واتَّبعوها. وأدَّوْها إلينا كما سَمِعوها، ولم يُلاحِظوا أسْبابَ الوَقائعِ والأحْوالِ ولم يُراعوها، ولا رَفَضوا تُرَّهاتِ الأحاديثِ ولا دَفَعوها. فالتحقيقُ قليلٌ، وطَرَفُ التنقيحِ في الغالبِ كليلٌ، والغَلَطُ والوَهْمُ نَسيبٌ للأخْبارِ وخليلٌ، والتَّقْليدُ عَريقٌ في الآدميين وسَليل، والتَّطَفُّلُ على الفنونِ عريضٌ وطَويل. ومَرعى الجَهْلِ بينَ الأنامِ وخيمٌ وبيلٌ. والحَقُّ لا يُقاوَمُ سُلطانُهُ، والباطِلُ يَقذِفُ بشِهابِ النَّظَرِ شَيْطانُهُ، والنَّاقِلُ إنما هو يُمْلِي ويَنْقُلُ، والبصيرة تنقدُ الصحيح إذا تَمْقُل. والعلم يَجْلو لها صَفَحاتِ الصوابِ ويَصْقُل.

هذا وقَدْ دَوَّنَ الناسُ في الأخْبارِ وأكثَرُوا، وجَمَعوا تَواريخَ الأُمَمِ والدُّوَلِ في العالمِ وسَطَّروا. والَّذين ذَهَبوا بفَضْلِ الشُّهْرَةِ والأمَانَةِ المُعْتَبَرَةِ، واستَفْرَغوا دَواوينَ مَنْ قَبْلَهم في صُحُفِهم المُتَأخِّرَةِ، هم قليلونَ لا يكادونَ يُجاوِزونَ عَدَدَ الأنامِلِ، ولا حَرَكاتِ العَواملِ؛ مثلُ ابنِ إسْحَاقَ والطبريِّ وابْنِ الكَلْبِيِّ ومحمَّدِ بْنِ عُمَرَ الواقِدِيِّ وسَيْفِ ابنِ عُمَرَ الأسَدِيِّ والْمَسْعُودِيِّ وغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَشَاهِيرِ، المُتَمَيِّزِينَ عَنِ الجَماهيرِ؛ وإنْ كانَ في كُتُبِ الْمَسْعُودِيِّ والواقِدِيِّ من الْمَطْعَنِ

وَالْمُغْمَرِ ما هو مَعْروفٌ عندَ الأثْباتِ، ومَشْهُورٌ بين الحُفَظَةِ الثِّقاتِ، إلاّ أنَّ الكافَّةَ اخْتَصَّتْهُمْ بقَبولِ أخْبارِهِمْ، واقْتِفاءِ سُنَنِهم في التَّصْنيفِ واتِّباعِ آثارِهِمْ، والنَّاقِدُ البَصيرُ قِسْطاسُ نَفْسِهِ في تَزْييفِهِم فيما يَنْقُلونَ أو اعْتِبارِهِمْ؛ فَلِلْعُمْرانِ طَبائعُ في أحْوالِهِ تَرْجِعُ إلَيْها الأخْبارُ، وتُحْمَلُ عَلَيْها الرِّواياتُ والآثارُ. ثم إنَّ أكْثَرَ التَّواريخِ لهؤلاءِ عامَّةُ المَناهِجِ والمَسالِكِ، لعمومِ الدَّوْلَتَيْنِ صَدْرِ الإسْلامِ في الآفاقِ والْمَمالِكِ[1]، وتَناوُلِها البَعيدَ من الغاياتِ في المَآخِذِ والمَتارِكِ. ومِنْ هؤلاءِ مَن اسْتَوْعَبَ ما قَبْلَ المِلَّةِ من الدُّوَلِ والأُمَمِ، والأمْرِ العَمَمِ، كالمَسْعُودِيِّ ومَنْ نحا مَنْحاهُ.

وَلَمَّا كانَ مُشْتَمِلاً على أخْبارِ العَرَبِ والبَرْبَرِ، مِنْ أهْلِ المُدُنِ والوَبَرِ، والإلْمامِ بِمَنْ عاصَرَهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الكُبَرِ، وأفْصَحَ بالذِّكْرى والعِبَرِ، في مُبْتَدَإِ الأحْوالِ وما بَعْدَها من الخَبَرِ، سَمَّيْتُهُ:

كتابَ العِبَرِ، وديوانَ المُبتدأ والخَبَرِ في أيّامِ العَرَبِ والعَجَمِ والبَرْبَرِ، ومَنْ عاصَرَهُمْ مِنْ ذوي السُّلْطانِ الأكبرِ

وَلَمْ أتْرُكْ شَيْئًا في أوَّلِيَّةِ الأجْيالِ والدُّوَلِ، وتَعاصُرِ الأُمَمِ الأُوَلِ، وأسْبابِ التَّصَرُّفِ والحِوَلِ[2]، في القُرونِ الخالِيَةِ والمِلَلِ، وما يَعْرِضُ

---

(١) يشير ابن خلدون في المقدمة بكلمة "الدولتين" إلى دولة بني أمية وبني العباس، ويذكر فيها غالبًا كلمة "صدر الإسلام" إذ كان يقصد التعبير عن جميع عصور الخلافة الإسلامية.

(٢) الحِوَل: التحول.

فى العُمْرانِ دَوْلَةٍ وَمِلَّةٍ، وَمَدِينَةٍ وَحِلَّةٍ[1]، وعِزَّةٍ وَذِلَّةٍ، وَكَثْرَةٍ وَقِلَّةٍ، وَعِلْمٍ وَصِنَاعَةٍ، وَكَسْبٍ وَإِضَاعَةٍ، وَأَحْوالٍ مُنْقَلِبَةٍ مُشَاعَةٍ، وَبَدْوٍ وَحَضَرٍ، وَوَاقِعٍ وَمُنْتَظَرٍ، إِلاَّ واستَوْعَبْتُ جُمَلَه، وَأَوْضَحْتُ براهينَهُ وعِلَلَه. فَجَاءَ هذا الكتابُ فَذًّا بما ضَمَّنْتُهُ من العُلومِ الغَريبَةِ، وَالحِكَمِ المحجوبَةِ القَريبَةِ. وَأَنا من بَعْدِها موقِنٌ بالقُصورِ، بَيْنَ أَهْلِ العُصورِ. مُعْتَرِفٌ بالْعَجْزِ عن الْمَضاءِ، في مِثْلِ هذا القَضاءِ، راغِبٌ من أهلِ اليَدِ البَيْضاءِ، والمعارفِ المُتَّسِعَةِ الفَضاءِ، النَّظَرَ بعَيْنِ الانتقادِ لا بعينِ الارْتِضاءِ، والتغَمُّدَ لما يَعْثُرُونَ عليْه بالإصْلاحِ وَالإغْضاءِ. فالبضاعَةُ بَيْنَ أَهْلِ العِلْمِ مُزْجاةٌ، والاعْتِرافُ مِنَ اللَّوْمِ مَنْجاةٌ، والحُسْنَى من الإخْوانِ مُرْتَجاةٌ، والله أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنا خالِصَةً لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الوَكِيلُ.

وَبَعْدَ أَنِ اسْتَوْفَيْتُ عِلاَجَهُ، وَأَثَرْتُ مِشْكاتَهُ لِلْمُسْتَبْصِرِينَ وَأَذْكَيْتُ سِرَاجَهُ[2]، وَأَوْضَحْتُ بَيْنَ العُلومِ طَرِيقَهُ وَمِنْهَاجَهُ، وَأَوْسَعْتُ في فَضاءِ الْمَعَارِفِ بِطَاقَهُ، وَأَدَرْتُ سِيَاجَهُ، أَتْحَفْتُ بِهذِهِ النُّسْخَةِ منه خِزانَةَ مولانا السُّلطانِ الإمامِ المُجاهِدِ، الفاتِحِ الماهِدِ، المُتَحَلِّي منذُ خَلَعَ التَّمائمَ وَلُوثِ العَمائمِ[3]، بِجِنى الفَائِتِ الزاهِدِ، المتوَشِّحِ من زَكاءِ

---

(١) الحِلَّة: الغربة.

(٢) أذكى السراج أضاءه، والنار أشعلها (الصحاح).

(٣) اللُّوث: عصب العمامة (القاموس).

المناقبِ والمحامِدِ، وَكَرَمِ الشَّمائلِ والشَّواهِدِ، بأَجْمَلَ من القَلائِدِ، في نُحورِ الوَلائِدِ[1]، المُتناوِلِ بالعَزْمِ القَوِيِّ الساعِدِ وَالجَدِّ المُؤاتي المُساعِدِ، والمَجْدِ الطارِفِ والتالِدِ، ذَوائبَ مُلْكِهِم الرَّاسي القواعِدِ، الكَريمِ المعالي والمصاعِدِ، جامِعِ أَشْتاتِ العلوم والفوائدِ، وناظِمِ شملِ المعارِفِ الشوارِدِ، ومُظْهِرِ الآياتِ الرَّبّانِيَّةِ، في فَضْلِ المدارِكِ الإِنْسانِيَّةِ، بفكرِهِ الثاقِبِ الناقِدِ، وَرَأْيِهِ الصَّحيحِ المعاقِدِ، النَّيِّرِ المَذاهِبِ والعَقائِدِ، نورِ الله الواضِحِ المَراشِدِ، ونِعْمَتِهِ العَذْبَةِ المَوارِدِ، وَلُطْفِهِ الكامِنِ بالْمَراصِدِ للشدائِدِ، وَرَحْمَتِهِ الكريمَةِ المقائِدِ، التي وسِعَتْ صلاحَ الزمانِ الفاسِدِ، واستقامةَ المائِدِ[2] من الأَحْوالِ والعَوائِدِ، وَذَهَبَتْ بالخُطوبِ الأَوابِدِ، وَخَلَعَتْ على الزمانِ رَوْنَقَ الشبابِ العائِدِ، وَحُجَّتِهِ التي لا يُبْطِلُها إِنْكارُ الجاحِدِ ولا شُبْهاتُ المُعانِدِ، (أمير المؤمنين) أبي فارس عبد العزيز ابن مولانا السلطان الكبير المجاهد المقدَّس أمير المؤمنين أبي الحسن ابن السادةِ الأعلامِ من بني مَرين، الَّذينَ جَدَّدوا الدينَ، وَنَهَجوا السبيلَ للمُهْتَدينَ، وَمَحَوْا آثارَ البُغاةِ المُفْسِدينَ. فأَدامَ الله على الأُمَّةِ ظِلالَهُ، وَبَلَّغَهُ في نَصْرِ دَعْوَةِ الإِسْلامِ آمالَهُ. وَبَعَثْتُهُ إلى خِزانَتِهِمُ المُوقَفَةِ لِطَلَبَةِ العِلْمِ بجامِعِ القَرَوِيِّين من مَدينةِ فاس حاضِرَةِ مُلْكِهِم، وكُرْسِيِّ سُلْطانِهِم، حيثُ مَقَرُّ الهُدى، وَرِياضُ المَعارِفِ خَضِلَةُ النَّدى،

---

(١) "الولائد": الجواري، جمع وليدة (المصحح).

(٢) "المائد المتحرك والمختل"، من مد يميد إذا تحرك وزلزل واضطرب.

وَفَضاءُ الأَسْرارِ الرَّبّانِيَّةِ فسيحُ المدى، وَالإمامَةُ الكريمةُ الفارسيَّةُ[1] العزيزةُ إن شاء الله بنظرها الشريف، وفَضْلِها الغَنِيّ عن التَّعْريف: تَبْسُطُ له من العِنايَةِ مِهادًا، وَتَفْسَحُ له في جانبِ القَبولِ آمادًا، فتوضَّح بها أَدِلَّةٌ على رُسوخِهِ وَأَشْهادٌ. فَفي سوقِها تَنفُقُ[2] بضائعُ الكُتّابِ، وعلى حضْرَتِها تَعْكِفُ رَكائِبُ العُلوم والآدابِ. ومِنْ مَدَدِ بَصائِرِها المُنيرةِ نَتائجُ القَرائحِ والأَلْبابِ. والله يوزِعُنا شُكْرَ نِعْمَتِها، وَيوفِّرُ لنا حظوظَ المَواهِبِ من رَحْمَتِها، وَيُعينُنا على حُقوقِ خِدْمَتِها، وَيَجْعَلُنا من السابقين في مَيْدانِها، المُجَلّين[3] في حَوْمَتِها، وَيُضْفي على أَهْلِ إيالَتِها، وما أَوى من الإسْلامِ إلى حَرَمِ عمالَتِها، نُبُوسَ حِمايَتِها وحُرْمَتِها؛ وهو سُبْحانَهُ المسؤولُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمالَنا خالِصَةً في وُجْهَتِها، بريئةً من شَوائبِ الغَفْلَةِ وشُبْهَتِها؛ وَهُوَ حَسْبُنا وَنِعْمَ الوَكيل.

الأُمَمِ الَّذينَ عَمَروا المَغْرِبَ في هذه الأَعْصارِ، وملؤوا أَكنافَ النَّواحي مِنهُ وَالأَمْصارِ. وما كانَ لهم من الدُّوَلِ الطِّوالِ أَوِ القِصارِ، وَمَنْ سَلَفَ مِنَ المُلوكِ وَالأَنْصارِ. وَهُمُ العَرَبُ وَالبَرْبَرُ؛ إِذْ هُما الجِيلانِ اللَّذانِ عُرِفَ بالمَغْرِبِ مَأْواهُما، وَطالَ فيه على الأَحْقابِ

---

(١) أي المنسوبة إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز.

(٢) نفقت البضاعة تنفق نفاقًا: راجت وكثر طلابها (المصباح).

(٣) جمع المجلّي وهو السابق من الخيل في الحلبة.

مَثْواهُما، حَتَّى لا يَكادُ يَتَصَوَّرُ فيه ما عداهما، ولا يَعْرِفُ أَهْلُهُ من أَجْيالِ الآدَمِيِّينَ سِواهُما. فَهَذَّبْتُ مناحيه تَهْذِيبًا، وقَرَّبْتُهُ لأَفْهامِ العُلَماءِ والخاصَّةِ تَقْرِيبًا، وَسَلَكْتُ في تَرْتِيبِهِ وَتَبْوِيبِهِ مَسْلَكًا غريبًا، واخْتَرَعْتُهُ من بين المناحي مَذْهَبًا عجيبًا، وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً وأُسْلُوبًا. وشرحتُ فيه من أحوال العُمْرانِ والتمدُّنِ، وما يَعْرِضُ في الاجْتِماعِ الإنْسانيِّ من العوارضِ الذاتيَّةِ ما يُمْتِعُكَ بعِلَلِ الكوائنِ وأسبابها، وَيُعَرِّفُكَ كيفَ دَخَلَ أَهْلُ الدُّوَلِ من أَبْوابها؛ حَتَّى تَنْزِعَ من التقليد يَدَكَ، وَتَقِفَ على أَحْوالِ ما قَبْلَكَ من الأَيَّامِ وَالأَجْيالِ وما بَعْدَكَ.

وَرَتَّبْتُهُ على مُقَدِّمَةٍ وَثَلاثَةِ كُتُبٍ:

المُقَدِّمَةُ: في فضلِ عِلْمِ التاريخِ وَتحقيقِ مَذاهِبِهِ وَالإِلْماعِ[1] بمغالِطِ المُؤَرِّخِين.

الكتاب الأوَّل: في العُمْرانِ وَذِكْرِ ما يعرضُ فيه من العوارِضِ الذاتيَّةِ من المُلْكِ والسُّلْطانِ والكسْبِ والمعاش والصَّنائعِ والعُلوم، وما لذلكَ من العِلَلِ وَالأَسْبابِ.

الكتاب الثَّاني: في أَخْبارِ العَرَبِ وَأَجْيالِهِمْ وَدُوَلِهِمْ منذُ مَبْدَإِ الخَليقةِ إلى هذا العَهْدِ، وفيه الإِلْماعُ بِبَعْضِ مَنْ عاصَرَهُمْ من الأُمَمِ المشاهيرِ

---

(١) الإلماع: الإشارة والتنبيه

وَدُوَلِهِمْ مثل النَّبْطِ والسُّرْيانِيِّين والفُرْسِ وبني إسرائيلَ والقِبْطِ واليونانِ والرومِ والتُّرْكِ والإفْرَنْجَةِ.

الكتاب الثالث: في أَخْبارِ البَرْبَرِ ومن إِلَيْهِمْ من زَناتَةَ، وَذِكرِ أَوَّلِيَّتِهِمْ وَأَجْيالِهِمْ وما كانَ لَهُمْ بِديارِ المَغْرِبِ خاصَّةً من المُلْكِ والدُّوَلِ.

ثم كانتِ الرِّحلَةُ إلى المَشْرِقِ لاجْتِلاءِ أَنوارِه، وقضاءِ الفَرْضِ والسُّنَّةِ في مَطافِهِ ومَزارِه، والوقوفِ على آثارِهِ في دَواوِينِهِ وأَسْفارِه، فأَفَدْتُ ما نَقَصَ من أَخْبارِ مُلوكِ العَجَمِ بتلكَ الدِّيارِ، وَدُوَلِ التُّرْكِ فيما مَلَكوهُ من الأَقْطارِ، وَأَتْبَعْتُ بِهِ ما كَتَبْتُهُ في تلك الأَسْطارِ، وَأَدْرَجْتُها في ذِكرِ المُعاصِرِينَ لِتِلْكَ الأَجْيالِ من أُمَمِ النواحي. وَمُلوكِ الأَمْصارِ والضَّواحي؛ سالِكًا سبيلَ الاخْتِصارِ والتَّلْخيصِ، مُفْتَدِيًا بالْمَرامِ السَّهْلِ من العَويصِ، ذاخِلاً من بابِ الأَسْبابِ على العُمومِ إلى الأَخْبارِ على الخُصوصِ؛ فَاسْتَوْعَبَ أَخْبارَ الخَليقَةِ اسْتيعابًا، وَذلكَ من الحكمِ النافِرَةِ صِعابًا، وَأَعْطَى لِحَوادِثِ الدُّوَلِ عِلَلاً وَأَسْبابًا، وَأَصْبَحَ لِلْحِكْمَةِ صِوانًا وَلِلتَّارِيخِ جِرابًا[1].

❖ ❖ ❖

(١) الصِّوان - بكسر الصاد وضمها - هو ما يصان فيه الشيء، وكذلك الجراب (المصباح).